



اللغة غير المنطوقة في رسائل ذي الوزارتين، لسان الدين بن الخطيب

الباحث: حسام محمود محمد محمود القيسي

وزارة التربية - المديرية العامة لتربية ديالى - قسم الإعداد والتدريب - شعبة الدراسات والبحوث
- الملخص:

تمثل اللغة المنطوقة أداة رئيسة للتواصل الإنساني، لذلك حظيت باهتمام مبكر من اللغويين والنقاد، بينما ظلت اللغة غير المنطوقة مهمشة حتى أشار الجاحظ إلى أهميتها بوصفها وسيلة للتعبير عبر الجسد والإشارات المتفق عليها. ومن هنا برز دورها في إعادة النظر في الخطاب اللغوي والنقدي. وتكشف رسائل ذي الوزارتين لسان الدين بن الخطيب عن ثراء في الرموز غير اللفظية لم يُحلل من قبل. وتسعى هذه الدراسة إلى إبراز دلالاتها الرمزية والإيحائية من خلال آليات منهجية تكشف أبعادها الكامنة.

- الكلمات المفتاحية: اللغة غير المنطوقة - التواصل - المعنى الضمني - الجسد.

Nonverbal Language in the Letters of Dhū al-Wizāratayn (Lisān al-Dīn Ibn al-Khaṭīb)

Researcher: Hussam Mahmoud Mohammed Mahmoud Al-Qaisi

Ministry of Education - General Directorate of Education in Diyala - Preparation and Training Department - Studies and Research Division

Abstract:-

Spoken language has long been central to human communication and received early scholarly focus, while nonverbal expression remained overlooked until al-Jāhīz highlighted its role through bodily gestures and agreed signs. Since then, it has been seen as vital to rethinking discourse. The epistles of Dhū al-Wizāratayn Lisān al-Dīn ibn al-Khaṭīb reveal a rich use of such symbols that has not been previously analyzed. This study seeks to uncover their symbolic and implicit meanings using methodological tools to highlight their hidden dimensions.

Keywords: Nonverbal Language – Communication – Implicit Meaning – The Body.

أهداف البحث:

بالنظر إلى ما تقدمه الدراسات اللسانية الحديثة حول ماهية اللغة وأهميتها، تنجلي مجمل الأهداف التي يرمي إليها ذلك البحث، ويمكن حصرها في عدد من النقاط المحددة على نحو ما يلي:

- التعريف باللغة غير المنطوقة، والوقوف على أهميتها في تعيين الدلالات التي لا تؤدي باللغة الملفوظة.
- تزويد ميدان الدراسة بجديد يساهم في قراءة الموروث النقدي واللغوي للعرب وفق معايير هذه اللغة.
- الاستدراك على الدراسات السابقة بما يكمل ما فيها من قصور؛ لأنها لم تسهم في إثراء ميدان البحث بالقدر المطلوب.

● أهمية البحث:

تنشأ أهمية أي دراسة مما تتناوله تحنها من موضوعات، وكون موضوع تلك الدراسة جديداً إلى حد كبير، تتضح أهمية البحث تبعاً لذلك، ومن مظاهر أهميته الآتي:

- الإشارة إلى انقسامات اللغة إلى منطوقة متلفظ بها، وغير منطوقة يُعرج فيها على ملكة الحركة الجسمية.



- توجيه الباحثين نحو فهم جديد للتراث العربي شعراً ونثراً، في ضوء الدلالات المنبثقة عن حركة الجسد، والإيماء بأعضائه.
- تأكيداً لشمول الموروث النقدي واللغوي العربي على وجوه جديدة للمعاني، لا تتضح عبر القراءات النقدية المعتادة للغة الخطاب المنطوقة.

● إشكالية البحث:

- وليس من نافلة القول ادعاء كمال الدراسات السابقة في هذا الميدان على النحو الذي يُمكن من القول بعدم وجود إشكاليات قد تعرض لهذا البحث، أو لغيره من الأبحاث التي تخصصت في قراءة الخطاب اللغوي والنقدي من وقع اللغة غير المنطوقة، ومُجمل الإشكاليات التي تُعرض لها الباحث تتلخص في التالي:
- ندرة المصادر التي تخصصت في دراسة النصوص دراسة لغوية عبر معايير القراءة المتعلقة باللغة غير الملفوظة.
 - قصور الدراسات السابقة عن الوفاء بماهية اللغة غير المنطوقة، ودواعي قراءة الخطاب النقدي واللغوي على هدي منها.
 - قصور باع بعض الباحثين عن إدراك عمل اللغويين العرب القدامى بهذا المصطلح، مما حملهم على إنكاره، ومن ثمّ عدم الاعتداد بدراسة الخطاب وفق معايير.

مقدمة

تعدّ اللغة الوسيلة الأساسية التي ينعم الناس - في ظلّها - بالتواصل المثمر؛ من أجل استيعاب الخطاب وفهم مغازيه، وقد تعدّدت روافد بناء دلالة الخطاب، فلم يقتصر الدرس اللساني المعاصر على نظر اللغة باعتبارها رموزاً منطوقة، وإيماءات مكتوبة، بل عرض لقراءة الإشارات الصادرة من اليد والعين وحركة الجسد المختلفة في المواقف المتغيرة، فتحوّلت تلك الإيماءات من مجرد حركة عفوية لا تحمل معنى، إلى قراءة واعية يُستنبط منها الكثير من المعاني التي تتعدّد بها الدلالات.

ويظهر من تعريف ابن جنّي للغة بقوله: "هي: أصوات يُعزّر بها كل قوم، ن أغراضهم"¹، استغناؤه بالجانب الملفوظ عن تلميحات الجسد، وحركة الأعضاء في الدلالة على القصد من الخطاب، وكان خليقاً بإبن جنّي الإفادة مما صرّح به الجاحظ حول طرائق التعبير عن الأغراض، وأساليب استتطاق المعاني واستبطانها من كلّ ما تنعقد به الدلالة، إذ يجعل كلاً من الإشارة والخط والنسبة والإيماء معرّفاً من معرّفات المعنى الكامن في القلب²، غير أنه لم يعتن بما ذكره الجاحظ مع تأخره عنه زمناً، ولعل ذلك راجع إلى أن الجاحظ تناول معرّفات الدلالة من واقع بلاغيّ، أما ابن جنّي فكان أمره مع اللغة أمر اللغويين في التعريف بها.

وقد أسفرت عناية اللسانيين المعاصرين عن رافد جديد من روافد اللغة يُمكن من تفسير الدلالات المرادة، والتواصل عبره دون التلقظ بكلمة واحدة، وذلك هو الإشارة الجسدية بأيّ من أعضاء الجسم التي يُحدّد كلّ منها معنى من المعاني، بحسب، وقد عدّ الجاحظ الإشارة الجسدية بأحد الأعضاء أبلغ من اللفظ بالكلمة،

¹ الخصائص، أبو الفتح عثمان بن جنّي، تح: د. محمد علي النججار، الهيئة المصرية العامة للكتاب، القاهرة، مصر، ط1، 2007، 34/1.

² البيان والتبيين، أبو عثمان عمرو بن بحر الجاحظ، تح: عبد السلام محمد هارون، دار الغد، القاهرة، مصر، ط1، 2001، 84-83/1.



ف"مبلغ الإشارة أبعد من مبلغ الصوت"³ عنده؛ لدلالة الإشارة على المعنى المتعين، أما اللفظ فمُحتملٌ لأكثر من معنى.

وفي تناول الدراسة لمظاهر اللغة غير المنطوقة في رسائل لسان الدين ابن الخطيب من خلال كتابه (ريحانة الكتاب ونجعة المنتاب)، كان من الملائم التعويل على المنهج الوصفي التحليلي؛ لمُناسبته وصف وتحليل الظواهر اللغوية الرمزية في هذه الرسائل، على أن تقع الدراسة في مقدمة، ومبحثين، هما:

- المبحث الأول: الظواهر الدلالية في لغة لسان الدين ابن الخطيب غير الملفوظة
- المبحث الثاني: حاجية الرمز الإشاري، في ضوء البلاغة العربية وخاتمة، تتضمن عددًا من التوصيات الإجمالية، ثم مصادر الدراسة ومراجعتها.

المبحث الأول:

الظواهر الدلالية في لغة لسان الدين ابن الخطيب غير الملفوظة

تتسم اللغة الملفوظة بظواهر أسلوبية وتركيبية تسهم في فهم المعنى، وتعيين دلالة الخطاب المرادة، وتخضع تلك الظواهر لطائفة من المعايير التحوية والبلاغية تُعين على تفسير المنشود من رموز اللغة وعلاماتها، التي تُحوّلها من رموز اعتباطية إلى دلالات مقصودة في ذاتها⁴، أما لغة التخاطب غير المتلفظة فليست كذلك، بل إنها تتعرف بالإيماء المشار بها إلى غاية متفق عليها اتفاقًا مسبقًا بين المتكلم والمخاطب، وتتجلى في رمزية الإيماء بالعين، واليد، والنسبة، وتُمثل تلك الإيماءات الظواهر الدلالية التي تُغني عن النطق باللسان⁵، وهو ما نتعرفه في ضوء النماذج التحليلية المنتقاة من رسائل لسان الدين ابن الخطيب هنا في هذا المبحث:

- ظاهرة الإيماء بالعين:

لا يقتصر الدور المنوط بالعين تأديته على الإبصار بها، بل إن لها وظيفة أخرى تتعلق بملكة التعبير عما يختلج في الوجدان، فتعالجه معالجة لغوية قد تبلغ غاية في الدلالة على تفسير الخطرات لا يبلغها الكلام المُشافه أو المكتوب، وقد قال الشاعر قديماً⁶:

تَرَى عَيْنَهَا، فَتَعْرِفُ وَحْيَهَا * وَتَعْرِفُ عَيْنِي مَا بِهِ الْوَحْيُ يَرْجِعُ

ومن رسائل ذي الوزارتين التي تُبرز تحولات المرئيات عبر العين التي هي آلة البصر إلى دلالات اشبهما تكون بتلك التي تُعالج بالألفاظ، ما جاء في رسالته التي يمدح فيها السلطان أبا فراس بن السلطان أبي الحسن في أول عام سبعين وسبعمئة، من قوله: "والنُّفوسُ تجنحُ إلى أشكالها وتحن، وتلقى من الجواب عن ذلشك جهدَ عبارة، لا تُجلّ عن كنه المفهوم، ولا تُوفي مع الإطالة بالعرض المروم، والله عزّ وجلّ يجعله في ذاته ودًا وثيقًا، وينهج به إلى ما يرضاه طريقيًا، ويُريه المسلمين تصوّرًا وتصديقًا، حتى تجتمع الأيدي المسلمة

³ المصدر نفسه، 84/1.

⁴ الملفوظ والملحوظ (دراسة في علم اللغة الحديث)، د. جاسر الأحمد، دار توبقال للنشر والتوزيع، الدار البيضاء، المغرب، ط1، 2011، ص16.

⁵ محاضرات في علم اللغة العام، فردينان دي سوسير، تر: عبد القادر قنيني، مطابع أفريقيا الشرق، ط1، 2003، ص16.

⁶ البيان والتبيين، الجاحظ، 84/1، وقد أورده الجاحظ في الإشارة إلى أن للعين فعلاً لا تقوى على الدلالة عليه منطوق الكلام



على جهاد الكافرين، وتلوح آيات النصر واضحة للمُبصرين⁷، فلما لم تكن البنية اللفظية أقدَر على التعبير عن دلالة تحصيل السلطان للنصر المُبين، حادَ لسانُ الدين ابن الخطيب عنها مستعملًا لغةَ الجسد؛ لاشتماله على الطبيعة المادية التي تبرزُ المعنى في صورة حسيّة ملموسة⁸.

ومن ثمّ فإنّه يُعيدُ تشكيلَ الدلالة وبناءَ المعنى المراد، بإخراجه من حيز الإيهام الناشئ من التّبرير اللفظي، إلى شغل مساحة من الوعي الدلالي بقوله: "وتلوح آيات النصر للمُبصرين"؛ لعدم احتمال ما تُبصره العين من آيات النصر للتكذيب، في ضوء العلامات اللغوية التي يُنتجها الجسد، بحسب المتعارف عليه منها مجتمعيًا⁹، من حيث أسهمت العين في ترجمة ملامح النصر المُحصّل للسلطان على أعدائه، إلى مشهد يعجز اللفظ عن التعبير عنه.

ومن ذلك أيضًا ما جاء في رسالته إلى وليّ عهد السلطان (أبي الحجاج) مُهنئًا إيّاه بولاية العهد بعد وفاة أبيه، إذ يقول: "وأورث المُلْك الجهادي من ولده خير مَلِكٍ قُبِلت منه كَف، واستدار به موكبُ الجهاد مُلتف، وشمخ بِخدمته أنف، وسما إلى مُشاهدته طُرف"¹⁰، ففي امتداحه له باستحقاق ولاية العهد بعد أبيه، يُجعل للطرّف من الوظائف الدلالية ما لا يقوم به الكلام المنطوق في التعبير، فقوله: "وسما إلى مُشاهدته طُرف" إنزال للعين التي تتشوّف للنظر إلى الممدوح منزلة عبارات المديح المكاثفة، فحلّ الطُرف في ذلك محلّ الكلام الكثير، فأختصر الكثير من الكلام من خلال ما تؤدّيه العين بلغتها التي تُعزّز دافعية قبول الأمر لدى المُتلقي، وإظهار ما خفي عليه من مكنون الخاطر¹¹.

- ظاهرة الإيماء باليد:

ولليد لغةٌ يبسط من خلالها الإنسان معانيه على الوجه الذي لا يُنازع فيه غيره، مهما اتفقت في حركتها معه، فالموافق والأغراض هي التي تحكّم المقاصد المنشودة من حركة اليد، فهي ليست مجرد جارحة يتقي بها الإنسان الأذى، أو يُمسك بها الأشياء، بل إنّ لها من الوظائف ما لا يتصل بتلك الأغراض بسبب.

ومن رسائل لسان الدين بن الخطيب التي أسفر استعمال اليد فيها عن كثير من الدلالات التي لا تُستنتق بالغة الملوّظة، رسالته إلى السلطان أبي الحجاج يدفع عنه الخلاف الذي ارتكبه عيسى بن الحسن في إحدى المسائل الفقهية فيها، والتي منها: "وما الظن في دارٍ فسدَ بابها، وآمالٍ رنت أسبأها، وجريرةٍ لا تُستغنم أحوالٌ من بابها إلا بالسكون... وأمرٍ نضرغ في تداركه إلى سميع الدعاء مُجيب، ونحن فيه يدٌ أمام يديكم"¹²، فيستعمل اليد في قوله: "ونحن فيه يدٌ أمام يديكم" إظهارًا لأنّ اليد قد تكون لسان حال المرء الناطق بما لا ينطق به لسانه، وسليته إلى البيان، من حيث كانت "الأفعال الإشارية الصامتة لها من التأثير ما يفوق فعل

(7) ربحانة الكتاب، ونجعة المنتاب، لسان الدين بن الخطيب، تح: د. محمد عبد الله عنان، مكتبة الخانجي، القاهرة، مصر، ط1، 1980، 423/1.

(8) ينظر: فلسفة الجسد، ميشيلا مارزانو، تر: نبيل أبو مصعب، المؤسسة الجامعية للدراسات والنشر، بيروت، لبنان، ط1، 2011، ص63.

(9) محاضرات في علم اللغة العام، فردينان دي سوسير، د. ت.

(10) ربحانة الكتاب ونجعة المنتاب، لسان الدين بن الخطيب، 123/1.

(11) ينظر: لغة الجسد – كيف نفهم الآخرين من نظرة عين، ياسر حماية، دار كنوز للنشر والتوزيع، القاهرة، مصر، ط1، 2012، ص5.

(12) ربحانة الكتاب ونجعة المنتاب، لسان الدين بن الخطيب، 7/2.



الكلمات¹³، وإن في استعمال اليد في الأخذ بالحق لا سيما لو كان مطلوبًا بالكتابة، من يجعل ذلك قبيل المجاز المرسل بعلاقته الآلية؛ لأن اليد هي آلة الكتابة ووسيلتها.

ويتجوز لسان الدين بن الخطيب في استعمال اليد أيضًا، باعتبارها الوسيلة التي تنقل ما في النفس إلى الصحائف، فيقول في إحدى رسائله: "وقد وصل إلى العبد تشريفكم السابغ الحلل، وتنويهكم المبلغ غايات الأمل، وخط يدكم الكريمة، وغمامة رحمتكم الهامية الديمة"¹⁴، وإيثار التعبير باليد عن القول المتلفظ به؛ لما في "التعبير بأسرار الوجه وحركات الأيدي ما لا انحصار له من المعاني"¹⁵، وكون اليد وسيلة بصرية عظيمة الشأن في إبراز المقاصد، اعتبرها علم اللسانيات الحديث من أعظم وسائل الاتصال¹⁶، وقد لمس لسان الدين ابن الخطيب ذلك فيها، فآثر استعمال اليد في استنطاق دلالة الخطاب على ما تختزنه النفس من معان.

فالخط وإن كان منسوبًا إلى اليد نسبة حقيقية، إلا أن المراد من قوله: "وخط يدكم الكريمة"، كلامكم الذي عز بلوغه ذو الوزارتين، وفاخر على غيره ممن ليس لهم عند السلطان المكانة نفسها، فحلت اليد هنا محل الملفوظ من الكلام، واستعانته صاحب الرسالة باليد تنويه بأن ما تكفه النفس ويضمرة خاطر من كلام لا يعبر عنه باللغة المشافهة، قد يصل إلى تلك الغاية بالكتابة باليد؛ ففي الإيماء بها إلى ذلك ما يتضمن إشارة إلى ملكة السلطان الكتابية، وجوده بوقته في رسالة صاحب الرسالة، وهي معان لا تستفاد من اللغة المنطوقة.

ويشاكل ذلك ما جاء في رسالته إلى ولد السلطان أبي الحسن يستمنحه المكانة التي كانت له، ند أبيه قبل موته، فيقول: "إذ جعل المولى المقدس المرحوم أبا الحسن مقدمه وأباه وجدته سبقه، يرى بركم بهذا اللحد الكريم قد طنّب عليه من الرضا بساطًا، وأغلق به يد العناية المرينية اهتمامًا واعتباطًا، وحرر أحكام الحرمة نصًا جليًا واستنباطًا، وضمن له بحسن العقبى التزامًا واشتراطًا، وقد عقد النصر بطريق رحمتكم المنتظرة المرتقبة، ومدّ اليد إلى لطائف شفاعتكم التي تتكفل بعقّ المال كما تكفلت بعقّ الرقبة"¹⁷، فاليد في قول لسان الدين بن الخطيب: "وأغلق به يد العناية المرينية اهتمامًا واعتباطًا"، وقوله: "وقد عقد النصر بطريق رحمتكم المنتظرة المرتقبة، ومدّ اليد إلى لطائف شفاعتكم" ليست الجارحة التي يفضي الحديث عنها إلى الدلالة على الأخذ أو العطاء.

والذي يجلي عن توغل لسان الدين بن الخطيب في الدلالة الغامضة التي أراد استنطاقها باستعمال لفظ اليد في المرتين، قرينة الحال، ففي الاستعمال الأول يُشير إلى أن الجيش الذي قاده نحو تخليص بعض ربوع الأندلس من الأعداء كان له من السلطان عليه والتأثير فيه ما جعله يُغلق حومة الحرب على النصر الذي حققه هناك، وفي الثاني يُوحى استعماله لكلمة اليد بما وراء ذلك من قوة الشكيمة التي مكنته من استرداد

¹³ سيمياء الجسد في القرآن الكريم (دراسة تحليلية)، وليد محمد السراقبي، مجلة دواة - مجلة فصلية محكمة، كلية الآداب، جامعة حماة، ع: 2011، ص149.

¹⁴ ريحانة الكتاب، لسان الدين بن الخطيب، 36/2.

¹⁵ الجنون بالشعر، جلال الخياط، دار بيروت، بيروت، لبنان، ط1، 2006، ص173.

¹⁶ ينظر: العبارة والإشارة (دراسة نظرية الاتصال)، د. محمد العبد، القاهرة، مصر، ط1، 2007، ص99.

¹⁷ ريحانة الكتاب ونجعة المنتاب، لسان الدين بن الخطيب، 90/2.



مُلْكِ البلادِ من الأعداءِ، وبالنَّظرِ إلى هاتينِ الدالَّتينِ، نجدُ أنَّ اليَدَ فيهِما تعبيرٌ مجازيٌّ يُحقِّقُ مدلوله الكامنَ وراءَ المعنى الظاهرِ بقراءته في إسياقاتٍ ورويد¹⁸.

وباستبطانِ السياقِ الذي وردت فيه كلمةُ اليَدِ، نَقَفُ على أنَّ دلالتها متوقِّفةٌ على استيعابِ العلاقةِ بينها وبينَ مُجاوراتِها؛ فـ"ألغَةُ الجَسَدِ لها مدلولاتٌ تتفرَّغُ على فهمِ محيطِها اللُّغويِّ من الكلماتِ التي تُكتنِفُها"¹⁹، وقد صَاحِبَ استعمالُ لسانِ الدِّينِ بنِ الخطيبِ اليَدَ هنا ألفاظَ العنايةِ والجيشِ، مما يدلُّ على استعمالِها في معانيِ القوةِ، والنَّصرِ والشَّفاعةِ، ممَّا يدلُّ على إرادةِ دلالةِ السَّماحةِ والإنصافِ، ولو أنَّه أتى بكلِّ معنىٍ من هذينِ المعنيتينِ في إطارهِ اللُّغويِّ المنطوقِ، ما كانَ ليتَّهياً المُتلقِّيَ لاستقبالِ المعنى على طبيعته التي تُسفرُ عن مشهدِ السُّلطانِ في حالتيِ السُّلمِ والحربِ، لِمَا في استعمالِ الجارحةِ في هذينِ المعنيتينِ من تجسيدٍ وتجسيمِ.

ومن رَسائِلِهِ إلى السُّلطانِ أبي عبدِ اللهِ بنِ نصرٍ، بَعَدَ أن أعادَ اللهُ إليه مُلكه، وجمعَ له أحماءَهُ وأوداءَهُ حولَهُ بَعَدَ تفرُّقِهِم، ما يَجْنَحُ فيه إلى التَّعبيرِ بلغةِ الجَسَدِ عن محبَّتِهِ فيه، تَهْنِئَةٍ بِمَا حصلَ له مِن أسبابِ استعادةِ المُلكِ، فيقولُ: "والعبدُ يا مولاي قد بهرتهُ آلاءُ اللهِ قبلك، بالفكرِ جائلٌ، واللسانِ ساكتٌ، والعقلُ ذاهلٌ، والطرفُ باهتٌ، فإن أقامَ رسماً للمُخاطبةِ، فقلَّمُ وركضُ"²⁰، مستوحياً من جولانِ الفكرِ مع سكوتِ اللسانِ عن البيانِ، وذَهولِ العقلِ عن التَّعبيرِ، وإطراقِ البصرِ عن التأمُّلِ، الإشارةَ إلى أنَّ ملكةَ التَّعبيرِ بأعضاءِ الجسمِ أعظمُ قُدرةً على الوفاءِ بِمَا في النفسِ مِن بيانِ اللسانِ.

ودلَّ على ذلكِ بقوله: "اللسانُ ساكتٌ"، تعبيراً عن فقدهِ القُدرةَ على استخراجِ ما في نفسه في صورةٍ ملفوظةٍ تُحيلُ على المعنى المرادِ من الكلامِ، فلَمَّا تَعَاظَمَ البلاءُ بِفقدِ السُّلطانِ مُلكَهُ عَجَزَتِ الألةُ التي مِن شأنِها الإفصاحُ بِمَا يرغِبُ الإنسانُ في الإفصاحِ عنه؛ تنفيساً عن نفسه، وترويحاً عن خاطره، كما دلَّ عليه بقوله: "والطَّرْفُ باهتٌ"، ففي سكونِ الطَّرْفِ مِن المعانيِ المتباينةِ والمتغايرةِ ما قد يُفهمُ منه شعورُ الكاتبِ بالسُّرورِ، فالإنسانُ يُطرقُ في حالتيِ الفرحِ والحُزنِ، حتَّى يأتي قولُهُ (باهتٌ) فيعرِّفُ بالدلالةِ المنشودةِ مِن سكونِ الطَّرْفِ، إذ إنَّ الطَّرْفَ لا يبهتُ إلا في إطراقِ الحُزنِ، وتعبيرِ الإنسانِ عن الحُزنِ بسكونِ الطَّرْفِ مِن أعلى درجاتِ الإحساسِ بِفقدِ الرغبةِ في الكلامِ.

ومِمَّا يُشعرُ به قولُهُ: "فإن أقامَ رسماً للمُخاطبةِ فقلَّمُ وركضُ"، استبداله للكلماتِ المنطوقةِ الدالَّةِ على مدى حُزنيه على ما انقضتِ مِن فقدِ السُّلطانِ مُلكه، ثمَّ ما انتابه مِن مسرةٍ؛ لِمَا أتاحه اللهُ له مرةً أُخرى مِن استردادِ له، بسكونِ الطَّرْفِ تارةً، وشروءِ الذَّهْنِ أُخرى، والركضِ في ساحةِ الفكرِ ثالثةً؛ لأنَّ الوسائلَ الأشدَّ تعبيراً عمَّا يُعالجه في نفسه مِن وقوعِ بينَ متناقضينِ: الحُزنِ والسُّرورِ، وفي ذلكِ من التَّعبيرِ عن الاتِّصالِ الجسديِّ بالمعانيِ المرادةِ من الخطابِ ما لا يتأتَّى إلا بالتَّعبيرِ الصامتِ واللغةِ غيرِ المنطوقةِ²¹.

¹⁸ينظر: الرمز والإشارة في شعر الجزار التنيسي، د. محمد عبد القادر حارس، دار مداد، طرابلس، ليبيا، ط1، 2021، ص231

¹⁹حركة الجسد (الرمزية، والوظيفية)، د. حسان ثابت حسين، دار النهضة الثقافية، القاهرة، مصر، ط1، 2017، ص23.

²⁰ريحانة الكتاب ونجعة المنتاب، لسان الدين بن الخطيب، 99/2.

²¹ينظر: العبارة والإشارة (دراسة في نظرية الاتصال)، محمد العبد، ص100.



المبحث الثاني:

حجاجية الرمز الإشاري، في ضوء البلاغة العربية

اللغة غير المنطوقة لغة رمزية إشارية، لها مقوماتها التي تُجلب عن دوافع استعمال الإنسان لها في مقامات معينة، وسياقاتها تدعو إليها، ومعاييرها التي تُفاس بها، وتعتمد عليها في بيان المراد منها مع كل إشارة يرمز بها مُستعملها إلى معنى من المعاني²²، وقد بدأت عناية اللسانيين بدراسة رمزية اللغة غير الملفوظة مع إدراكهم "أن الكائنات البشرية تتواصل بطرق شتى، مستخدمة كل حواسها: اللمس، الذوق، الشم، والبصر بصفة خاصة، وكذلك السمع"²³؛ لأن التوقف عند اللغة المنطوقة في استقصاء الدلالات المنشودة من الخطاب إجحاف لتلك المعاني المُنبثقة عن الإيماءات الجسدية.

وقد ارتبط الرمز اللغوي بفنون البلاغة ارتباطاً مباشراً، وقد سبق النص على ما صرح به الجاحظ في ذلك، وللعرب قديماً مذهب واضح في الربط بين رمزية اللغة باعتبارها أداة للتعبير عن المعاني الماثلة في الذهن لدى طرفي الخطاب، وحصول صورة الملفوظ به من تلك اللغة أو المكتوب أو المشار إليه بالجسد، فهي لا تقع من النفوس موقعا يفهم منه المراد إلا على اتفاق مسبق بين أطراف الخطاب؛ لأن الرمز اللغوي لاسيما لو كان إشارة جسدية لا يفهمه إلا من اعتاد الإشارة إليه وفق علمه المسبق به²⁴.

ويمكن استقصاء نتائج رمزية اللغة غير المنطوقة في رسائل لسان الدين ابن الخطيب في ضوء عدد من النماذج المختارة للتحليل منها، ومن ذلك قوله في رسالته إلى السلطان (أبي عنان): "أبقاه الله يتهلل للبشرى جنابه، ويفتح لوراد الفتح الإلهي بآبه"²⁵، فهو إذ يدعو للسلطان مُتمنياً له دوام البشر واستمرار المسرة والحبور، يُحيل على ذلك المعنى بأحد الأساليب البلاغية التي تخضع في تصديرها للمعنى المراد إلى المتلقي لقانون الرمز اللغوي، فبحسب الأداة يتحقق المعنى، وقد وظف لسان الدين بن الخطيب أدواته اللغوية الجسدية في بناء تلك الدلالة، فانبلاج النور من جناب السلطان، يلزم منه وجود الآلة التي تُبصر ذلك النور، وقد جعل مجرد النظر إلى النور يتلأأ في جناب السلطان أداة للتعبير عن البشر الذي كان يمكن أن يُعبر عنه ذو الوزارتين بالكلام، ولكنه فضل التلذيل عليه بلبلة البصر، وما يقع في نفسه مما تراه عينه من هذا النور في مجلس السلطان.

وهناك ارتباط وثيق بين رمزية الأداة اللغوية والفرق البلاغي الذي استنتق به ذو الوزارتين هذا المعنى، فقوله: "أبقاه الله يتهلل للبشرى جنابه" ضرب من ضروب البيان مبني على الاستعارة، فالتهلل إشراق يتراءى للعين، و(البشرى) السرور، واستعارة رؤية الجناب للبشر من قبيل الاستعارات المكنية؛ لتشبيهه الجناب بالإنسان ذي البصر، التي يمكنه من رؤية السرور، فحذف المشبه به، وهو الإنسان، وأبقى المشبه وهو الجناب؛ لتمكين الرؤية منه، والدلالة على المعنى المتوهم بصورة حسية تُعزز المعنى وتقيم في النفس²⁶.

وهناك عدد من الظواهر البلاغية التي مزج لسان الدين ابن الخطيب بينها وبين الرموز اللغوية غير المنطوقة في كثير من رسائله، وذلك الذي جاء في قوله: "في علم سيدي وذخري أن الغايات يؤمل دركها،

²² ينظر: النقد الأدبي الحديث، د. محمد غنيمي هلال، دار الجمل للطباعة والنشر، القاهرة، مصر، ط1، 1984، ص412

²³ الشفاهية والكتابية، ولترج أونج، تر: د. حسن البنا عز الدين، سلسلة عالم المعرفة، الكويت، عد: 182، 1990، ص49.

²⁴ ينظر: منهاج البلغاء وسراج الأدباء، أبو الحسن حازم بن محمد القرطاجني، تح: محمد الحبيب بن الخوجه، دار الغرب

الإسلامي، بيروت، لبنان، ط1، 1989، ص4

²⁵ ربحانة الكتاب ونجعة المنتاب، لسان الدين بن الخطيب، 140/1

²⁶ ينظر: جواهر البلاغة في: (المعاني، والبيان، والبيدع)، السيد أحمد الهاشمي، دار مكتبة الآداب، القاهرة، مصر، ط1،



ويُسْفَرُ عن العُثمِ والظفرِ مُعْتَرِكُهَا، وَيُرَامُ مُفْرَدُهَا وَمُشْتَرَكُهَا، إِلَّا مَا كَانَ من توفيةِ حَقِّه، فَإِنَّهَا الغايَةُ التي تُنْزَكُ إذ لا تُدْرِكُ، وتتعدى إذ لَوَازِمُهَا لا تُؤَدِّي، فسيانُ الإطالةِ والاختصارِ، والاسترسالِ والإقصارِ، فحياها اللهُ من ذاتِ تحذُرٍ على عَيْنِ كَمالِها العَيْنُ²⁷، من رسالتهِ إلى رئيسِ ديوانِ الإنشادِ الشريفِ شمسِ الدينِ أبي عبدِ اللهِ بنِ أبي ركبٍ، أحدُ هذه النماذجِ.

وتتجلى مفاصدُ الخطابِ في قوله: "فحياها اللهُ من ذاتِ تحذُرٍ على عَيْنِ كَمالِها العَيْنُ"، في ضوءِ دلالةِ كلمةِ (عَيْنِ/العَيْنِ)، وهي من ألقاظِ الجوارحِ، غيرَ أنَ لسانَ الدينِ بنِ الخطيبِ لم يوظفها للإشارةِ بها إلى الجارحةِ المعروفةِ في المعنى الأولِ، بل هي عندهُ بِمعنى (أصل)، ف(عَيْنُ الشَّيءِ: أصلُه)، كما لم يَكُنْ يعني بها الجارحةَ التي هي آلةُ الإبصارِ في المعنى الثاني، بل لأداءِ معنى من المعاني الغامضةِ، التي ما كانت لتبرزَ لمُتلقيها ظاهرةً إلا بامتزاجها معَ ذلكَ الفنِّ البلاغيِّ الذي أسهمَ في تحطِّي الدلالةِ حاجزَ الكلامِ عن العضوِ الجسديِّ للإنسانِ، إلى أرواةِ الثناءِ على رئيسِ ديوانِ الإنشادِ وإظهارِ فضلهِ في الخلقِ.

وقد اجتمعت من الآلاتِ في تلكَ العبارةِ ما يؤكدُ حقيقةَ طلبِ لسانِ الدينِ بنِ الخطيبِ لهذا المعنى، فهو يُجانسُ بينَ العَيْنِ والعَيْنِ، مع اختلافِ معنييهما، وهو من الجناسِ التامِّ، وحقيقتهُ: "أن تجيءُ الكلمةُ تُجانسُ أخرى في بيتِ شعرٍ وكلامٍ، ومجانستها لها أن تُشبهها في تاليفِ حروفها"²⁸، وفي هذا النوع من الجناسِ من الإيهامِ ما يستكنُّ في ضميرِ المخاطبِ به من الغموضِ ما يحمله على تقصِّي حقيقةِ اللفظِ ومدلوله²⁹، وفي ذهابِ المُتلقي نحوًا من تحديدِ الغايةِ المرادةِ من كلِّ لفظٍ يقفُ عندَ دلالةِ العَيْنِ على البصرِ، وهو ليسَ مقصودًا بل إنه يُرادُ بها التنبيةُ على أنَ منزلةَ رئيسِ ديوانِ الإنشادِ كمنزلةِ العَيْنِ من الإنسانِ، وهو استعمالٌ مجازيٌّ تُحقِّقُ اللغةُ غيرَ المنطوقِ، من حيثُ دلتُ الإشارةُ بالعَيْنِ المكانةَ العاليةِ والمنزلةَ الرفيعةِ.

وقد خرجَ قوله في تلكَ العبارةِ: "تحذُرُ على كَمالِ عَيْنِها العَيْنُ" مخرجَ الدِّعاءِ، فالعَيْنُ التي في الموضعِ الثاني من العبارةِ هي آلةُ البصرِ، وكونُ الحسدِ لا ياتي إلا منها دعا لسانَ الدينِ بنِ الخطيبِ لرئيسِ الديوانِ بالأقربِ العَيْنِ، أي: لا يمسهُ حسدٌ، وتقديرُ الكلامِ: وَقَالَ اللهُ حَسَدَ الحاسدينَ؛ لكَمالِ منزلتِكَ وعلوِّ مرتبتِكَ، وقد جاءَ لفظُ العَيْنِ مستعملًا في معنى الحسدِ في قوله صلى اللهُ وسلم: "لا شيءَ في الهامِ، والعَيْنُ حقٌّ"³⁰، مما يؤكدُ استعمالَ الجارحةِ هنا في معنى الحسدِ، وهو من الرموزِ غيرِ المنطوقِ التي تُفهمُ من السياقِ بقريئةِ الحالِ.

ومن ذلكَ أيضًا ما جاءَ في رسالتهِ التي يُفاكهُ فيها صديقُه (أبا زيد بنِ خلدون)، من قوله فيها: "فإن كنتَ أعزَّكَ اللهُ من النمطِ الأولِ فقدَ جنيتَ الثمرَ، واستطبتَ الثمرَ، وتلوتَ أولَ وردك، واقتربتَ الساعةَ وانشقَّ القمرُ فاستدع الأبوأق من أقصى المدينة، واخرج على قومك في لباسِ الزينة، واستعد كرسِيَّ القعودِ، والقباب من المدهون المشهودِ، واستبشر بالوفودِ، وعرف المسمع عارفةَ الجودِ، وتبجَّح بصلايةِ العودِ، وإنجاز الوعودِ، واستمتع بالشهودِ، واجن رُمانَ النهودِ، من أغصانِ العودِ"، فإن في هذا القولِ من الكناياتِ التي امتزجت بالرمزِ اللغويِّ؛ من أجلِ الاحتجاجِ به على المعنى المدلولِ عليه بذلكَ الرمزِ ما يظهرُ معنا في "عَرَفَ المَسْمَع..."، و"تبجَّح بصلايةِ العودِ"، و"واجن رُمانَ النهودِ"، و"أغصانِ العودِ"، ما يقودُ المُتلقي إلى فهمِ تحوُّلاتِ المعنى من مجردِ إرادةِ هذه الأشياءِ المذكورةِ، إلى ما وراءها.

²⁷ ريحانة الكتاب ونجعة المنتخب، لسان الدين بن الخطيب، 172/2

²⁸ البديع في البديع، أبو العباس عبد الله بن محمد المعتز بالله، بدون تحقيق، دار الجبل، بيروت، لبنان، ط1، 1990، ص108

²⁹ ينظر: موسيقا الشعر، د. محمود عبد المعطي، المركز الثقافي الأدبي، جدة، المملكة العربية السعودية، ط1، 2007،

ص319

³⁰ سنن الترمذي، أبو عيسى محمد بن عيسى الترمذي، تح: شعيب الأرنؤوط، دار الرسالة العالمية، بيروت، لبنان، ط1،



من حيث كان لكل لفظ منطوق دلالة ظاهرة وأخرى ما وراء الظاهرة، يقود إليها السياق على هدي من القرائن المتاحة فيه، وذلك مفهوم لغوي حدّه اللسانيون بما يُعرفُ عندهم بـ"ميتافيزيقا اللغة"³¹، ويتعيّن على إثره المفهوم بمعزل عن المنطوق، ويظهر ذلك في استعمال لسان الدين بن الخطيب لألفاظ الجسد التي جاء بها في النصّ وفق تصوّر المتلقّي عنها، وإدراكه لمعانيها المألوفة، ولكن المراد منها شيء آخر، فهو في ذلك النصّ يذكر نمطين من الناس، أحدهما ذلك الذي صرّح بقدرته على معايشة النساء وامتلاك القدرة على التلذذ بمظاهر الحياة المختلفة، فكانت تلك الكلمات الموضوعه بإزاء أعضاء الجسد دالة على كمال قدرة من كان من هذا النمط من الناس.

ولكما يظهر من استعمال لسان الدين بن الخطيب لهذه الكلمات أنه كنى بها كلاً على استقلاله، عن معنى من المعاني الماورائية، فاستعماله للسمع هنا برهان على كمال آتية عند صاحب هذا النمط، والنبج بصلاية العود كناية عن قوة صاحب هذا النمط في المعايشة، وجنيه لزمان النهود احتجاج لمعنى التمتع بمفاتيح المرأة البارزة، ولم يُغن الرمز بأعضاء الجسم عن طلب المعنى المنشود من هذه الكلمات بالتقنن في إضفاء ألوان بلاغية كالكناية عليها، فهي أقوى للمعنى، ومحقة للأثر الميتافيزيقي منه.

الخاتمة

وبعد أن بلغت الدراسة مبالغها الأخيرة من التحليلات التي استقصت استعمال لسان الدين بن الخطيب للغة غير المنطوقة في مختلف مظاهرها، من كتابه ربحانة الكتاب ونجعة المنتاب، بقي على البحث رصد أبرز النتائج المتوصل إليها فيها؛ إتماماً لمحتواها، وإكمالاً لفحواها، وقد جاء أهم ما وصل إليه البحث من نتائج:

- أن لغة غير المنطوقة تمثلت تظهر في حركة الجسد، والإيماء بالعين، والإشارة باليدين وغير ذلك مما يتعيّن به مقصد الخطاب.
- أن اللغة غير المنطوقة تعتمد على معايير محددة في الخطاب بها، كالتّي تعتمد عليها اللغة المنطوقة، غير أنّهما يختلفان في طريقة الأداء.
- أن أصالة استعمال اللغة غير المنطوقة في التراث العربي تجعل منها غطاءً لكثير من المعاني والدلالات التي تفتح آفاقاً جديدة لقراءة النصوص التراثية.
- تتمازج اللغة غير المنطوقة مع بعض فنون البلاغة التي من شأنها بيان المعنى، وإعادة إنتاج دلالة الخطاب.
- عناية لسان الدين بن الخطيب بحركة الجسد، والإيماء المنبثقة عنها بصورة تُظهر رسوخه في فنون القول وتوجيه المعاني.

توصيات البحث:

وفي إطار العمل على هذا البحث ظهر قصور عناية الدارسين باللغة غير المنطوقة، مما دفع إلى قلة محصولهم البحثي في هذا الصدد، ولذلك توصي الدراسة بالآتي:

- ضرورة توجه الباحثين والنقاد إلى العناية التي تستحقها اللغة غير المنطوقة.
- تكثيف الجهود من قبل الأكاديميات والمؤسسات النقدية واللغوية في سبيل تحصيل نتائج أكثر دقة تخص دراسة المعاني المستقاة من أعضاء الجسم، وحركات الأعضاء.
- تزويد ميدان البحث ببعض الدراسات التشرّحية التي تخص حركات الأعضاء؛ لسهولة فهم ما تشير إليه من معاني ودلالات مختلفة. - مصادر البحث:

³¹ ميتافيزيقا اللغة، د. لطفي عبد البديع، الهيئة المصرية العامة للكتاب، القاهرة، مصر، ط1، 2001، ص3



- البديع في البديع، أبو العباس عبد الله بن محمد المعتز بالله، بدون تحقيق، دار الجيل، بيروت، لبنان، ط1، 1990
- البيان والتبيين، أبو عثمان عمرو بن بحر الجاحظ، تح: عبد السلام محمد هارون، دار الغد، القاهرة، مصر، ط1، 2001
- الجنون بالشعر، جلال الخياط، دار بيروت، بيروت، لبنان، ط1، 2006
- جواهر البلاغة في: (المعاني، والبيان، والبديع)، السيد أحمد الهاشمي، دار مكتبة الآداب، القاهرة، مصر، ط1، 2003
- حركة الجسد (الرمزية، والوظيفية)، د. حسان ثابت حسين، دار النهضة الثقافية، القاهرة، مصر، ط1، 2017
- الخصائص، أبو الفتح عثمان بن جني، تح: د. محمد علي النجار، الهيئة المصرية العامة للكتاب، القاهرة، مصر، ط1، 2007
- الرمز والإشارة في شعر الجزائر التنيسي، د. محمد عبد القادر حارس، دار مداد، طرابلس، ليبيا، ط1، 2021
- ريحانة الكتاب، ونجعة المنتاب، لسان الدين بن الخطيب، تح: د. محمد عبد الله عنان، مكتبة الخانجي، القاهرة، مصر، ط1، 1980
- سنن الترمذي، أبو عيسى محمد بن عيسى الترمذي، تح: شعيب الأرنؤوط، دار الرسالة العالمية، بيروت، لبنان، ط1، 2009
- سيمياء الجسد في القرآن الكريم (دراسة تحليلية)، وليد محمد السرايبي، مجلة دواة – مجلة فصلية محكمة، كلية الآداب، جامعة حماة، ع: 2011
- الشفاهية والكتابية، ولترج أونج، تر: د. حسن البنا عز الدين، سلسلة عالم المعرفة، الكويت، عد: 182، 1990
- العبارة والإشارة (دراسة نظرية الاتصال)، د. محمد العبد، القاهرة، مصر، ط1، 2007
- فلسفة الجسد، ميشيلا مارزانو، تر: نبيل أبو مصعب، المؤسسة الجامعية للدراسات والنشر، بيروت، لبنان، ط1، 2011
- لغة الجسد – كيف نفهم الآخرين من نظرة عين، ياسر حماية، دار كنوز للنشر والتوزيع، القاهرة، مصر، ط1، 2012
- محاضرات في علم اللغة العام، فردينان دي سوسير، تر: عبد القادر قنيني، مطابع أفريقيا الشرق، ط1، 2003
- الملفوظ والملحوظ (دراسة في علم اللغة الحديث)، د. جاسر الأحمد، دار توبقال للنشر والتوزيع، الدار البيضاء، المغرب، ط1، 2011
- منهاج البلغاء وسراج الأدباء، أبو الحسن حازم بن محمد القرطاجني، تح: محمد الحبيب بن الخوجه، دار الغرب الإسلامي، بيروت، لبنان، ط1، 1989
- موسيقا الشعر، د. محمود عبد المعطي، المركز الثقافي الأدبي، جدة، المملكة العربية السعودية، ط1، 2007
- ميثاقنا في اللغة، د. لطفي عبد البديع، الهيئة المصرية العامة للكتاب، القاهرة، مصر، ط1، 2001
- النقد الأدبي الحديث، د. محمد غنيمي هلال، دار الجمل للطباعة والنشر، القاهرة، مصر، ط1، 1984 .